● الباب الأول

□ متهمون بالإرهاب

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الإرهاب عربى الجنسية!

الفراغ النفسى الذى تركه انتهاء العداء لليهود بعد الحرب العالمية الثانية، وانتهاء العداء للشيوعية بعد الحرب الباردة (٨٩ ـ ١٩٩١)، جذب إليه العرب ومن خلفهم المسلمون جميعًا، الذين كانوا مؤهلين وبامتياز لملئه.

فقبل عقدين من الزمن تقريبًا، بدأت عملية دعائية شاملة استهدفت من بين ما استهدفت تحقيقه من أهداف، تعريب وأسلمة «الإرهاب فى الخطاب الإعلامى الدولى».. وقد بلغت هذه العملية ذروتها بفعل عاملين مباشرين أساسيين:

الأول يعود إلى سقوط الاتحاد السوفياتى وانهيار الكتلة الشيوعية، باعتبارهما يشكلان بؤرة المواجهة مع الغرب، واستبدال العدو الشيوعى ـ على الصعيد الإعلامى تحديدًا ـ بعدو آخر متمثل بالعالمين العربى والإسلامى.

وأما العامل الآخر فيعود إلى الصعود المفاجئ لبعض القوى، التى يطلق عليها اسم «الجماعات الأصولية» وممارساتها لعمليات إرهابية، تطرح دون حساب للتفاوت الهائل بينها وبين الغرب من حيث الإمكانات والقوى، مبدأ استخدام العنف فى مواجهة تفوق الغرب وهيمنته المطلقة.. بل إن هذه القوى لم تتردد فى الارتداد على مجتمعاتها نفسها، لاستخدام العنف العشوائى الذى لا يحسن التمييز بين هدف وآخر. ونتيجة ذلك كله أن العالمين العربى والإسلامى أصبحا الضحية النموذجية لما يطلق عليه بلغة الإعلام: «شيطنة العدو»، أى تحويل العرب والمسلمين بلا استثناء إلى شياطين أشرار، يعاملهم الإعلام الدولى

باعتبارهم دريئة إعلامية يسدد عليها الغرب، أو قل جزءًا لا يستهان به من مؤسساته الفكرية والصحافية، نيرانه العشوائية باستمرار، بل إن الأمر قد بلغ حدّا أصبح معه أكاديميون بارزون من أمثال «برنارد لويس» يقرنون بين الإسلام والإرهاب.

ما حقيقة هذه الظاهرة.. وما ملابساتها؟

عندما صدر كتاب «الإرهاب: كيف يمكن للغرب أن ينتصر؟» لمؤلفه بنيامين نتنياهو، وذلك قبيل انتخابه لمنصب رئيس الوزراء فى إسرائيل، أصبح مرجعًا كلاسيكيًّا فى مسألة علاقة الاقتران المزعومة بين العربى والمسلم وبين الإرهاب. ولم يتردد برنارد لويس آنذاك فى التعليق عليه قائلاً: «من المناسب أن نستخدم الإسلام كمصطلح للتحديد والتصنيف فى مناقشتنا لموضوع الإرهاب اليوم»، ولكن كيف يعلل هذا الحكم المجحف الذى يقدمه كحقيقة ناجزة هى من قبيل تحصيل الحاصل؟

ليس التعليل هو المهم، وإنما المهم هو ما يطلق عليه بلغة الإعلام «شيطنة العدو»؛ أى تحويله معنويًّا إلى شيطان رجيم، ومتجسد. أو بعبارة أخرى، نزع الصفة الإنسانية عن العدو بحيث يستحق عقابًا صارمًا يسمح للمُضْطَهِد (بكسر الهاء)، أن يمارس اضطهاده على المُضْطَهَد (بفتح الهاء)، دون أن يكون مطالبًا بتطبيق الشرائع ومواثيق حقوق الإنسان المعروفة فى التعامل مع البشر.. وفى مقال نشره الكاتب والناشر الإسرائيلى المعروف «يورى افنيرى» فى مجلة «ها عولام هازيه»، حول تعريف الإرهابى يشير إلى الكيفية التى استخدمت بها هذه الصفة دون تمييز، بحيث تشمل جميع الفلسطينيين سواء أكانوا مسئولين أم أطباء مستخدمين من قبل الهلال الأحمر الفلسطينى.. كما يوضح كيف نجح الإعلام الصهيونى المهيمن على جزء لا يستهان به من الخطاب الإعلامى الغربى فى وضع كلمة «إرهابى» فى أفواه الأجانب؛ بحيث يمكننا أن نقرأ فى صحافتنا كيف أن الملك أو الرئيس الفلانى ناشد الإرهابيين بأن ينسحبوا من بيروت، أو أن

السيناتور الأميركى «بيرسى» قدم تقريرًا حول لقاءاته بالإرهابيين.. والمفارقة فى هذا كله تكمن فى أن الإرهاب فى التاريخ المعاصر إسرائيلى المنشأ. وقد سبق للكاتب الأميركى اليهودى «تعوم تشومسكى» أحد أبرز الباحثين فى «الألسنية» ومؤلف كتاب «حضارة الإرهاب»، أن بَيَّنَ كيف أن الإسرائيليين هم الذين دشنوا الإرهاب فى الشرق الأوسط، وحرصوا على إبقاء جذوته مشتعلة باستمرار، وهذا ليس مجرد خطاب حماسى أجوف، أملته اعتبارات الانحياز غير العقلانى إلى هذا الطرف أو ذاك، وإنما هو خطاب مدعم بالدليل التاريخى.

*** التعريف الأمريكى:**

ولكن ما تعريف الإرهاب؟ ولماذا يجعله الإعلام الغربى حكرًا على العمليات الإرهابية التى يقوم بها العرب والمسلمون؟.. ما المقياس الذى يمكن اعتماده من أجل التوصل إلى الحد الأدنى من المصداقية الإعلامية؟

فى الثمانينيات توصلت المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) إلى بلورة التعريف التالى، الذى اعتمدته الخارجية الأمريكية: «الإرهاب هو التهديد باستعمال العنف أو استعماله لتحقيق أهداف سياسية من قبل أفراد أو جماعات، سواء كانوا يعملون لمصلحة سلطة حكومية رسمية أم ضدها».. و«تستهدف هذه الأعمال إحداث صدمة أو حالة من الذهول، أو التأثير على جهة تتجاوز ضحايا الإرهاب المباشرين، وقد مورس الإرهاب من قبل جماعات، تسعى إلى الانقلاب على أنظمة حكم معينة، أو معالجة ظلامات وطنية أو فئوية، أو إضعاف النظام الدولى باعتبار ذلك غاية فى حد ذاتها».

من الواضح أن هذا التعريف الشامل يحاول تغطية أنواع من الإرهاب يمكن أن تشمل المقاومة الفرنسية ضد النازيين، والألوية الحمراء فى إيطاليا، والمقاومة الجزائرية ضد فرنسا، وعمليات الكونترا فى نيكاراجوا، والمجاهدين فى أفغانستان، والجيش الجمهورى الأيرلندى فى أيرلندا الشمالية، وعمليات المقاومة فى الضفة الغربية وغزة والشريط الحدودى المحتل فى الجنوب اللبنانى، فضلاً

عن العمليات الإرهابية العشوائية التى تقوم بها مجموعات أصولية تنتمى إلى هذا الطرف أو ذاك. ومن الواضح أن عمليات الإرهاب الصهيونى ينطبق عليها هذا التعريف. إلا أن المشكلة تكمن أصلاً فى ما يدعوه «حليم بركات» بـ «أسرلة الإعلام الأميركى»؛ أى الربط المسبق بين الإسلام والعروبة، وبين مفهوم الإرهاب؛ أى جعل الإعلام الأميركى إسرائيليًّا.

فهذا الربط لا يتيح للخطاب الإعلامى المسيطر أن يصم عمليات تقوم بها فئات تستخدم الإسلام والعروبة زورًا بالإرهاب وحسب، وإنما يتيح له أيضًا أن يطال بمنهجه العنصرى كل عربى وكل مسلم، يجد نفسه ضحية من ضحايا ذلك الإرهاب.. والأنكى من ذلك أن هذا التعريف الفضفاض مازال يطبق بانتقائية، تجعل أمر استغلاله من قبل بعض الجهات السياسية النافذة فى الإعلام الغربى ممكنًا. وبعبارة أخرى.. فإن التعريف نفسه يمكن أن يؤدى ـ كما هو حاصل فعلاً ـ إلى النتيجة التالية: «الإرهابى هو عدونا الذى يقوم بعمليات إرهابية. أما صديقنا الإرهابى فليس إرهابيًّا مادام إرهابه يمارس ضد خصومنا». وقد رأى «جيمس أدامس» الباحث والإعلامى البريطانى، الذى كتب كتابًا، عنوانه «تمويل الإرهاب» أن يعتمد التعريف التالى للإرهاب: «الإرهابى هو فرد أو عضو فى جماعة، ترغب فى تحقيق غايات سياسية باللجوء إلى وسائل العنف، التى كثيرًا ماتكون على حساب الضحايا من المدنيين الأبرياء، وبدعم من أقلية من الذين يدعى الإرهابيون تمثيلهم».

غير أن التعاريف المتداولة للإرهاب تظل عديمة الجدوى؛ فالخطاب الإعلامى المسيطر مازال انتقائيًّا بامتياز. ولنعترف أن هذا الخطاب العنصرى قد نجح ـ إلى حد كبير ـ فى التأثير على الرأى العام الغربى وقولبته واستغلاله، وأن عمليات الإرهاب الصغيرة التى تقوم بها بعض الجماعات الأصولية لمصلحة جهات معادية للعرب والمسلمين، هى التى تستخدم للتغطية على عمليات الإرهاب الرسمى الكبيرة، والتى ارتكبت وترتكب سواء فى البوسنة أو الجنوب اللبنانى.

ولعل من أبرز المغالطات التى يواجهها العرب فى تعاملهم مع الغرب، إصرار الجهات الرسمية فيه على خرافة استقلالية الإعلام الأوروبى والأميركى.. فهذه الاستقلالية نسبية بمعنى أن التوجيه الرسمى أو غير الرسمى من قبل جماعات نافذة، لا يمكن استبعاده على نحو تلقائى. ومن المعروف أنه منذ الحرب العالمية الأولى والمؤرخون الأميركيون يمارسون ـ على حد تعبير تشومسكى ـ ما يدعونه بـ «الهندسة التاريخية»، وهذا المصطلح يذكرنا بمصطلح ستالين: «الهندسة البشرية». فما هذه الهندسة التاريخية؟.. فى كتابه «حضارة الإرهاب» ينقل تشومسكى عن مؤرخ أميركى مرموق اسمه «توماس بيلى»، قوله بالحرف الواحد: «لأن الجماهير قصيرة النظر إلى حد فضائحى، ولأنها عاجزة عن رؤية الخطر قبل أن يطبق عليها الخناق، فإن سياسيينا مضطرون لممارسة خداعهم من أجل توعيتهم بمصالحهم البعيدة المدى».

وهذه الفكرة التى تدعو إلى التدخل فى الإعلام، وفى قولبة الرأى العام يؤكد عليها «صامويل هانتنجتون» مدير مركز الشئون الدولية التابع لجامعة هارفارد، وصاحب أطروحة صدام الحضارات، بقوله قبيل انهيار الاتحاد السوفياتى: «إن علينا أن نروج لفكرة التدخل بحيث نخلق انطباعًا زائفًا، مفاده أن الاتحاد السوفياتى هو الذى نقاتله.. ذلكم هو ما فعلته الولايات المتحدة منذ مبدأ ترومان».. وبهذا الاعتبار فإنه لم يعد من المقبول إهمال ما يجرى فى الإعلام الغربى، أو قل فى بعض وسائل الإعلام الغربى، من عمليات «تعريب الإرهاب وأسلمته» واعتباره جزءًا من أمر واقع تفرضه حرية الصحافة فى المجتمعات الغربية. كما لم يعد من المقبول الصمت على إحلال العالمين العربى والإسلامى محل الاتحاد السوفياتى، واعتبارهما دريئة إعلامية وحيدة، يتدرب عليها الغرب فى مواجهة عدو وهمى، مستغلين حماقات الإرهاب الأصولى (اليمينية)، الرافعة لشعارات دينية، ومتجاهلين إرهاب جماعات يمينية متطرفة أخرى فى العالم، أكثر خطرًا وعنفًا!!

* * *